﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ٢٩﴾ [يونس: 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تأكيدُ التَّبرُّؤِ مِن عبادةِ المشركين بشهادةِ الله الحقِّ

بعدَ أن تَبرَّأَ الشُّركاءُ مِن عِبادةِ عابديهم في الآية السّابقة: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾، استشهدوا باللّه على براءَتهم مِن عبادة المشركين، قائلين: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾، أي: فحَسْبُنا اللّه شاهدًا بيننا وبينكم أيُّها المُشركونَ؛ فإنَّه قد عَلِمَ أنَّكم عَبَدتُمونا مِن غيرِ أن نأمُرَكم، ومِن دونِ أن نَشعُرَ بعِبادتِكم إيّانا[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَكَفَىٰ﴾: الكافُ والفاءُ والحَرْفُ المعتلُّ أَصْلٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ على الحَسْبِ الذي لا مُسْتَزادَ فِيهِ، يُقالُ: كَفاكَ الشَّيءُ يَكفيكَ، وقد كَفَى كِفايةً، إذا قامَ بالأَمرِ[2]، واستكفيتُه أَمرًا فكفانِيهِ، وكفاكَ هذا، أي: حَسْبُكَ[3]، والكُفْيَةُ: القوتُ الكافي، والجَمعُ كُفًى[4]. والمقصود بـ (كَفَى) في الآية: أَجْزَأَ وأَغْنَى عن غَيره.

2) ﴿شَهِيدًا﴾: أَصْلُ شَهِدَ: يَدلُّ على حُضورٍ وَعِلْمٍ وَإِعْلامٍ[5]، يُقالُ: شَهِدَ الشَّيءَ: إذا حَضَرَهُ وعايَنَهُ، وتُطْلَقُ بمعنى الإِخْبارِ والإِعْلامِ، يُقالُ: شَهِدَ بالأَمرِ، إذا أَخْبَرَ بِهِ وأَعْلَمَ غَيْرَهُ بِهِ[6]، فالشَّهادَةُ: إِخْبارٌ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/172، والواحديُّ، التَّفسير البسيط: 11/183، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/334.
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كفى).
(3) الخليل، العين: (كفي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كفى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شهد).
(6) نشوان الحميريّ، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (شهد).

عن عِلْم يَحْصُلُ عن طَريقِ الحُضورِ أو الرُّؤْيَةِ، ونَحْوِ ذلك، والشَّهيدُ: الشّاهِدُ، وَهوَ الْمُؤَيِّدُ والْمُصَدِّقُ لِدَعْوَى مُدَّعٍ[1]، وهو المراد هنا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تبكيتٌ عظيمٌ للمشركين وانقطاعُ أملهم في شفاعةِ المعبودين

يُخبر الله تعالى عن تأكيدِ شركاءِ المشركين براءَتَهم مِن عبادةِ عابديهم، بالرُّجوعِ إلى الشَّهادة الحَقِّ في ذلك، أي: باستشهادهم بالله على براءَتِهم مِن قول المشركين لهم في موقف الحشر: (إيّاكُم كنّا نعبد)، قائلين لهم: فحَسْبُنا الله شاهدًا بيننا وبينكم، أيُّها المُشركونَ؛ فإنَّه قد عَلِمَ أنَّكم عَبَدتُمونا مِن غيرِ أن نأمُرَكم، ومِن دونِ أن نَشعُرَ بعِبادتِكم لنا[2]، وفي هذا تبكيتٌ عظيمٌ للمشركين الذين عبدوا معَ الله غيرَه، ممَّن لا يَسمَع ولا يُبصِر، ولا يُغني عنهم شيئًا، ولم يأمرهم بذلك، ولا رَضِيَ به، ولا أراده، بل تَبرَّأ منهم في وقتٍ أحوجَ ما يكونون إليه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصل في الآية:

كفى بشهادةِ اللهِ شهادةً بينَ المعبودين والمشركين

هذه الآية كالتَّتِمَّة للآية السّابقة؛ فقدِ استشهد المعبودون في هذه الآية على ما قالوه للمشركين، في الآية السّابقة: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، وذلك بالشَّهادةِ الحَقِّ، شهادةِ العليم الخبير، الذي ليس بعد شهادته شهادةٌ.

دلالة العطف بالفاء:

فرَّع على غرابة خبر نفي أن يكونوا يعبدونهم، ما يُحقِّقُه ويُبَيِّنُه ويُؤَكِّدُه

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ عاطفة، والمعطوف عليه قوله تعالى: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، والغرضُ: هو تأكيدُ قولهم، وتبرُّئِهم مِن عبادةِ عابديهم[4]؛ لأنَّ هذه الفاء هي فاءُ التَّفريع،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/152.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/172، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/334، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/500، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/62.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/231.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3557.

للدّلالةِ على أنَّ القَسَم مُتَفرِّعٌ على الكلام المتقدِّم؛ لأنَّ إخبارَهم بنفي أن يكونوا يعبدونَهم خبرٌ غريبٌ مخالفٌ لما هو مُشاهَد، فناسَبَ أن يُفرِّعَ عليه ما يُحقِّقُه ويُبيِّنُه، مع تأكيدِ ذلك بالقَسَم.

والإتيانُ بفاء التَّفريع عند تعقيب الكلام بجملة قَسَميَّةٍ من فصيح الاستعمال، ومن خصائصه: أنَّه إذا عطفَ بفاء التَّفريع كان مُؤكّدًا لما قبلَه بطريق تفريع القَسَم عليه، ومُؤكّدًا لما بعدَه بطريق جواب القَسَم به[1]، وهو قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾.

توجيه التَّعبير بلفظ: (كفى):

الله هو الحَسْبُ القائمُ بالأمر، الغنيُ عن غيره

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بلفظ (كفى) في قوله تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾؛ لأنَّ لفظ (كفى) يحمل معانيَ أبلغَ من غيره، وأنسبَ للسِّياق؛ إذ من معاني (كفى): الحَسْبُ الذي لا مُسْتَزادَ فيه، يقال: كفى كِفايَةً؛ إذا قام بالأمر[2]، وفيه أيضًا معنى الغِنَى والاستغناء عن غيره، وسَدِّ الخَلَة، وبلوغِ المُراد في الأمر، والتَّعبيرُ بهذا الفعل (كفى) لما فيه من تقويَةِ اتِّصافِ فاعلِه - وهو الله في الآية - بوصفٍ يدلُّ عليه التَّمييزُ المذكورُ بعدَهُ، وهو (شهيدًا)، أي: أنَّ فاعل (كفى) أجدَرُ مَن يتَّصِفُ بذلك الوَصْف، ولأجل الدّلالةِ على هذا؛ غَلَبَ في الكلام إدخالُ باءٍ على فاعل فعل (كفى)، وهي باءٌ زائدةٌ لتوكيد الكفاية، بحيث يحصل إبهامٌ يشوِّقُ السّامعَ إلى معرفةِ تفصيلِه، فيأتون باسم يميز نوعَ تلك النِّسبة؛ ليتَمَكَّن المعنى في ذِهْن السّامع[3].

معنى الباء في: ﴿بِٱللَّهِ﴾:

الباءُ بينَ تأكيدِ ما بعدَها، والمبالغةِ في المدح

الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱللَّهِ﴾ تحتمل معنيين؛ الأوَّل: أنَّها دخلت توكيدًا للكلام؛ إذ سقوطُها ممكن، كما يقال: خُذْ بالخطام، وخُذِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/152.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كفا).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/73.

الخطامَ[1]، أي: كونها زائدةً تُقوِّي معنى الشَّهادة، أي: كفانا الله تعالى شاهدًا في بُطلان ما تَدَّعوه مِن أنَّكم كنتم تعبدوننا، ثمَّ أكَّدوا أنَّهم كانوا لا يعلمون: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾[2]. والآخَر: أنَّها دخلت للمبالغة في المدح، كما قالوا: أظْرِفْ بعبد الله، وأَنْبِلْ بعبد الرَّحمن، وناهِيْكَ بأخينا، وحَسْبُكَ بصديقنا[3].

فائدة التَّعبير عن شهادته تعالى بصيغة (فعيل):

شهادتهُ سبحانَه أبـلـغُ شـهـادة، وهي دائمةٌ ثابتةٌ

عبَّر القرآنُ عن شهادة الله تعالى في قوله: ﴿شَهِيدًا﴾ بصيغة (فعيل) بمعنى فاعل، أي: شهيد بمعنى شاهد، ولم يعبِّر بلفظ: (شاهد)؛ وذلك مبالغة في الشَّهادة؛ لأنَّ شهيدًا مِن صيغ المبالغة، فهي صفة مشبَّهةٌ تُفيد الثُّبوتَ والدَّوامَ، فشهادتُه ثابتةٌ دائمةٌ، وليست أمرًا عارضًا.

زِدْ على ذلك أنَّ لفظة (شهيد) أوسعُ دلالةً مِن (شاهد)؛ لذلك مِن أسماء الله الشَّهيد، لا الشَّاهد، لأنَّه سبحانَه "المطَّلِعُ على ما لا يعلمه المخلوقون إلّا بالشُّهود، وهو الحضور، ومعنى ذلك: أنَّه وإن كان لا يوصَف بالحضور الذي هو المجاورة والمقاربة، فإنَّ ما يجري ويكون مِن خَلْقه لا يخفى عليه"[4]، فهو مطَّلِع على جميع الأشياء، سميعٌ لجميع الأصوات، خفيِّها وجَلِيِّها، ومُبصِرٌ جميعَ الموجوداتِ، دقيقِها وجليلِها، صغيرِها وكبيرِها، ومحيطٌ عِلْمُه بكلِّ شيء، الذي شَهِد لعباده وعلى عباده بما عملوه[5].

وجه نصب: ﴿شَهِيدًا﴾:

الله هوَ الشّاهِدُ الـحـقُّ، الـكـافي بينَنا وبينَكم لا غيرُه

انتصب ﴿شَهِيدًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على التَّمييز؛

(1) ابن الجوزيِّ، زاد المسير في علم التَّفسير: 2/328.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3557، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/152.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3557.
(4) الحليميُّ، المنهاج في شُعب الإيمان: 1/200.
(5) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 948.

لنسبة الكفاية إلى الله، لما فيها مِنَ الإجمال[1] الذي يحتاج إلى بيان، ولذلك قالوا: انتصب على التَّمييز لقَبوله (مِن)، أي: مِنَ الشُّهداء.

فائدة التَّوكيد بالقَسَم في: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾:

قَسَمُ المعبودين بالله إثباتٌ لبراءَتِهم مِن عبادةِ المشركين لهم

جملة: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ مُؤكَّدَة بالقَسَم؛ لأنّ (كفى) صيغةُ خبرٍ مستعمَلٍ في إنشاءِ القَسَم؛ وذلك ليُثبِتَ المعبودون براءَتَهم ممّا أُلْصِقَ بهم، مِن أنَّهم أَمَروا المشركين بعبادتهم، فهم ما أَمَروهم ولا عَلِموا بعبادتهم، أي: جواب القَسَم: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾، وليس قولُهم: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ قسمًا على كلامهم المتقدِّم، وهو ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾؛ لأنَّ شأنَ القَسَم أنْ يكون في صدر الجملة[2].

وجه التَّعبير بالبيْنِيَّة وإضافتِها إلى الضَّميرين: ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾:

الشُّركاءُ والمشركون في موقفِ مُخاصَمةٍ وشهادَةُ الله هي الحَكَم

عبّر البيانُ الإلهيُّ بلفظ (بين) في قوله: ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ التي لا تكون إلّا بين مُتَعدِّد، ويكون بينهم مسافة؛ فأفاد التَّعبير بالبيْنِيَّة أنَّ الشَّهادة تكون بين فريق الشُّركاء وفريق المشركين، بعد أن زيَّل الله بينَهم، فهم في موقفِ مخاصَمةٍ ومحاكمة، وأنَّ الشّاهدَ بينهم هو الله تعالى، وأضاف الضَّميرين إلى لفظ (بين) في قوله: ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾؛ لأنَّ (بين) ظرفٌ مُبْهَمٌ لا يَتبيَّنُ معناه إلّا بإضافته إلى اسمين فصاعِدًا، أو ما يقوم مقامَهما، فأضافَه إلى الضَّميرين ليَتبيَّنَ أنَّ هذه البَيْنِيَّةَ هي بينَ الشُّركاء والمشركين. وعَبَّر بالضَّمير ولم يأتِ بالاسم الظّاهر؛ لأنَّ المتكلِّمين همُ الشُّركاء، وهذا ظاهرٌ مِنَ السِّياق، وأعاد لفظ (بين) في قوله: ﴿وَبَيْنَكُمْ﴾ بعد ﴿بَيْنَنَا﴾؛ ليُفيدَ التَّأكيد، فتَتَحَقَّقَ المقابلةُ بينَهم، ويتأكَّدَ أنَّ شهادةَ الله بينَهم.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/153.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/153.

معنى ﴿إِن﴾:

(إنْ) بين التَّأكيدِ والـحَـضـرِ والتَّحقيق

﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ تحتمل معانيَ؛ الأوَّل: مُخفَّفَةٌ مِنَ الثَّقيلة، واللّامُ فارقةٌ بينَها وبينَ النّافية، أي: إنَّه الأمر والشَّأنُ كنّا عَنْ عِبادَتِكُم لَغافِلينَ، وهذا قول أغلب المفسِّرين[1]، والمعنى: حسبنا اللّه شاهدًا بيننا وبينَكم؛ فهو يعلم أنّا ما عَلِمنا بعبادتكم لنا، ولا أَمَرْناكم بها، وأنّا كُنّا عنها غافلين. الثّاني: نافية، واللّامُ بِمعنَى إلّا، والمعنى: ما كُنّا عن عبادتكم إلّا غافلين، لا نبصرُها، ولا نسمعُ بها، ولا نعقلُها؛ إذ كنّا جمادًا، وهذا ما فسَّر به الفَرّاء والطَّبريُّ والبَغويُّ، وغيرُهم[2]. الثّالث: بمعنى لقد، يعني لقد كُنّا عن عبادتكم لغافلين[3].

نُكْتَةُ افتتاحِ جوابِ القَسَم بـ ﴿إِن﴾ المخفَّفة:

تأكيدُ عدمِ عِلْمِ المعبودين، وعدمِ أمرِهم للمشركين بالعبادة

افْتُتِحَ جوابُ القَسَم، وهو قولُه تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ بـ ﴿إِن﴾ المخَفَّفَة؛ لإفادة التَّوكيد؛ أي: توكيدِ جوابِ القَسَم، وهو عدمُ عِلْمِ المعبودين، وعدمُ أمرِهم للمشركين بالعبادة؛ لأنّ جوابَ القَسَم إن كان جملةً اسميَّةً مُثبتَةً فإنَّه يُؤكَّد بـ (إن) و(اللّام) أو بـ(إنَّ) فقط.

بلاغة حَشْدِ المؤكِّدات:

المبالغةُ في تأكيدِ المعبودين غفلَتهم عن عبادة المشركين؛ للتَّبرُّؤ منهم

أكَّد المعبودون تبرُّؤهم مِنَ المشركين - الذي يعلمه اللّه - بعِدَّة مؤكِّدات؛ وهي:

﴿إِن﴾ المُخَفَّفة مِنَ الثَّقيلة، واسمُها ضميرُ الشَّأن المحذوفُ، ويدلُّ عليه الخبرُ، وهو: ﴿كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾، "ومعناها التَّوكيدُ كالثَّقيلة"[4].

---

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/344، والنَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل: 2/19، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/153.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/80، والبغويُّ، معالم التَّنزيل في تفسير القرآن: 2/418.

(3) موسى الأعور، الوجوه والنَّظائر في القرآن الكريم، ص: 21، والدّامغانيُّ، الوجوه والنظائر لألفاظ الكتاب العزيز، ص: 26، وابن نور الدِّين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 67.

(4) ابن نور الدِّين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 63.

و(اللّام): الفارقةُ المزحْلَقَةُ التي تدخل على الخبر، والتي مِن أغراضها التَّوكيد.

و﴿كُنَّا﴾: جملة اسميَّةٌ أفادت التَّوكيد بما تَدُلّ عليه مِن استمرارٍ وثُبوت.

فبهذه المؤكِّدات قد أكَّدوا أنَّهم ما كانوا يعلمون عبادتهم لهم، وأنَّهم بُرآءُ مِن هذه العبادة، وأنَّهم ما كانوا يشعرون بهم، ولا بما ارتكبوا مِن إثمٍ مبين، وهو الإشراك باللّه تعالى، وهذا بيانٌ لسوءِ عملِ المشركين، وفسادِ اعتقادِهم، وضلالِهم الواضحِ المبين، وقد أرسل اللّه تعالى رُسُلَه فبيَّنوه لهم، وكذَّبوهم حتَّى حَقَّت عليهم كلمةُ العذاب، واللّه بكُلِّ شيء عليم[1].

معنى ﴿عَنْ﴾:

دلالةُ (عَنْ) على المجاوزة؛ بيانًا لبراءة المعبودين

يدلُّ حرفُ الجرِّ ﴿عَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ على المجاوزة، وهو الأصل في (عن)، كقولهم: (رميتُ السَّهم عنِ القوس)، أي: تجاوز السَّهْمُ القوسَ وابتعدَ عنه.

والمعنى بناء على ذلك: أنَّ عبادتكم أيُّها المشركون تجاوزتنا، فنحن غيرُ عالمين بها ولا آمرين، أي: لم تعبدونا على الحقيقة، وإنَّما عبدتُم غيرَنا ممَّن أَمَروكم بالعبادة، وهم الشَّياطين.

نُكْتَةُ الإضافةِ: ﴿عِبَادَتِكُمْ﴾:

عبادةُ المشركين للشُّركاء عبادةٌ اخترعوها ولم يعلم بها المعبودون

أضاف البيانُ الإلهيُّ العبادةَ إلى ضمير المشركين، في قوله تعالى: ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾؛ إشارةً إلى معنى تبرُّؤ المعبودين مِنَ المشركين، ومِن افتراءاتهم في عبادةٍ اخترعوها، فهي مِن مخترعاتهم التي لا دليلَ عليها ولا بُرهانَ، ولم يعلمِ المعبودون بها، ولم يأمروا بها.

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3558.

عِلَّة تقديم شِبه الجملة: ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾:

قدَّم البيانُ الإلهيُّ شبه الجملة: ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ على عامله ﴿لَغَافِلِينَ﴾، ولم يقل: (إن كنّا لغافلين عن عبادتكم)؛ للاهتمام بما زعمه المشركون مِن عبادة؛ إذ إنَّها سببُ هلاكِ المشركين، وخوفِ المعبودين مِنَ الهلاك، فضلًا عن رعاية الفاصلة[1]، فإنَّ أغلبها ينتهي بالياء والنون، أو الواو والنون: (خالدون، تعبدون، لغافلين، يفترون).

مـا زعـمَـه المشركون مِن عبادةٍ، سببُ هلاكِ المشركين، وخـوفِ المعبودين مِنَ الهلاك

حذف (لنا) في: ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾:

حَذَفَ البيانُ الإلهيُّ لفظ: (لنا) في قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾؛ إذِ التَّقدير: (إن كنّا عن عبادتكم لنا لغافلين)؛ وذلك لظُهوره مِنَ السِّياق، وللإيذان بكمال الغَفْلةِ عنها، والغَفْلةُ عبارةٌ عن عدم الارتضاءِ، وإلّا فَعَدمُ شعورِ الملائكةِ بعبادتهم لهم غيرُ ظاهرٍ[2].

الأصنامُ غافلون عـن عـبـادةِ المشركين تمامَ الغَفْلة

سِرُّ التَّعبير عنِ الغَفْلة باسم الفاعل مجموعًا: ﴿لَغَافِلِينَ﴾:

عبَّر البيانُ الإلهيُّ عنِ الغَفْلة في قوله تعالى: ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾؛ لاتِّساع دلالة مادَّة الغَفْلة؛ إذ هي أعمُّ مِنَ النِّسيان، وأتى به بصيغة اسم الفاعل الذي يدلُّ على الدَّوام، أي: دوام غفلتهم، ودلَّ على أنَّها ثابتةٌ غيرُ محدودة بزمنٍ، فقد كانوا غافلين طوالَ مُدَّة عبادة المشركين لهم، غيرَ عالمين بها.

الغفلةُ أوسعُ دلالـة وهـي مـن الأصـنـام المـعـبـودين الـغـافـلـين مستمرةٌ

وأمّا التَّعبير باسم الفاعل (غافلين) مجموعًا؛ فلمناسبةِ السِّياق، إذِ السِّياقُ هو خِطابُ جماعة الشُّركاء لجماعة المشركين، وللدّلالة على أنَّ المقصودَ بالمعبودين هنا جماعةٌ واحدة، وهمُ الأصنام دونَ الملائكة وعيسى بن مريم، وفرعونَ والجنِّ؛ إذ هؤلاءِ لم يغفلوا قَطّ عن عبادة مَن عبَدَهم.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/153.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/140.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

كَفَى وحَسْب:

الـكـفـايـةُ الاستـغـنـاءُ وعـدمِ الاحتياج إلى الإضافة

لا يكاد يظهر الفرق بين (كفى) و(حسب)، إذ يُعَرَّف كلٌّ منهما بالآخر في معاجم اللغة:

فـ(كَفَى): أصلٌ صحيح يدلُّ على الحَسْب الذي لا مُسْتَزادَ فيه، والكُفْيَةُ: القوتُ الكافي[1]، يقال: كفاكَ هذا الأمر، أي: حَسْبُكَ[2].

والـ (حَسْبُ): الكفايَةُ، وحَسْبُكَ دِرْهمٌ، أي: كافيكَ، وأحسبني الشَّيءُ، أي: كفاني[3].

ومع أنّ هذين اللَّفظين قد عُرِّفَ كلٌّ واحدٍ منهما بالآخَر، إلّا أنَّ فعل (كفى) قد اختصَّ ببعض المعاني، وهي: الغنى والاستغناء وعدمُ الاحتياج إلى إضافة؛ إذ يدلُّ على بلوغ الامتلاء، أو النُّموّ إلى الكمال المناسبِ دونَ زيادة[4]، و"سَدِّ الخَلَّة، وبلوغِ المراد في الأمر"[5]، ومساواةِ الشَّيء لمثله؛ فـ"كفى الشَّيءُ يكفي كفايَةً، فهو كافٍ؛ إذا حصل به الاستغناء عن غيره، واكتفيتُ بالشَّيء: استغنيتُ به، أو قنعْتُ به، وكلُّ شيء ساوَى شيئًا حتَّى صار مثلَه، فهو مكافِئٌ له"[6]. وخصوصُ هذا المعنى في (كفى) هو عِلَّة اصطفائه في الآية؛ لما يحمله الاكتفاءُ باللّٰه تعالى ربًّا ومعبودًا، مِن دلالةِ كمال الغنى، وتمام الاستغناء المنعدمِ معه الحاجةُ إلى غيره.

الغَفْلَةُ، والنِّسيانُ، والسَّهْو، واللّهو:

الغَفْلَةُ أعمُّ مِنَ النِّسيان وأحد أسبابِ اللّهو، والسَّهْوُ نسيانٌ مع غفلة

تتقارب معاني هذه الألفاظ، وقد يختلط بعضُها ببعض، إلّا أنَّه بالرُّجوع إلى اللُّغة وإلى الاستعمال نلحظُ بعضَ الفروقِ الدَّقيقة بينها مِن عدَّة جهات، وهي على النحو الآتي:

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كفا).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (كفى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والفيوميُّ، المصباح المنير، والزَّبيدي، تاج العروس: (حسب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (كفى).
(5) الرّاغب، المفردات: (كفى).
(6) الفيوميُّ، المصباح المنير: (كفى).

(الغَفْلة): غيبةُ الشَّيء عن بالِ الإنسان، وعدمُ تذكُّره له، فغَفَلَ عنِ الشَّيء: تَركَه وسَها عنه عمدًا أو غير عمد، فلم يلتفت أو يتنبَّه له، إمّا لانشغاله بغيره، أو تَرْكه إهمالًا من غير نسيان، والغَفْلة: الذُّهولُ عنِ الشَّيء، وسَهْوٌ يعتري من قِلَّة التَّحَفُّظ والتَّيقُّظ[1].

و(النِّسيان): مُشتَركٌ بينَ معنيين؛ أحدهما: تَركُ ضَبطِ ما استودع على ذُهولٍ وغَفْلة، وهذا ضِدُّ الحِفْظ والذِّكْر، والثّاني: التَّركُ على تعمُّد، حتَّى ينحذفَ عنِ القلب، وكلُّ نسيانٍ ذَمَّهُ الله تعالى؛ هو ما كان عن تَعمُّدٍ مِنَ الإنسان[2].

و(السَّهْو): سَها عنِ الشَّيء: غَفَل عنه، وذهب قلبُه إلى غيره، والسَّهْو والسَّهْوَة: نسيانُ الشَّيء والغَفْلةُ عنه، (يذهب مِن خلال الذِّهْن، ولا يضبطُه الذِّهن أو يُمسكه؛ فتخلو منه أثناؤه)، وإنَّ في السَّهو إهمالًا وتراخيًا في ضبط المسْهوّ عنه، وإمساكِه في القلب؛ أي: مَنْشَؤُه قِلَّة التَّحَفُّظ والتَّيقُّظ، ولهذا فالسّاهي مسؤولٌ، وذَمُّ السّاهين في الآيتين: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ١١﴾ [الذاريات: 11]، ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾ [الماعون: 5]، يُحقّق هذه الملاحظة، فمعناه: لاهون غافلون، وقال ابن الأثير: "سَها في الشَّيء: تَركَهُ عن غير عِلْم، وسَها عنه: تركَه مع العِلْم"[3].

و(اللّهو): كلُّ ما يُشْغِل الإنسانَ عمّا يَعنيه ويُهِمُّه، واللّهو يدلُّ على شُغْل عن شيء بشيء، ولَها عنِ الشَّيء: غَفَلَ عنه ونَسِيَه، وتَركَ ذِكْرَه وتشاغَلَ بغيره، إذِ اللّهو مبنيٌّ على الغَفْلة[4].

وخلاصَة ما يمكن تحريره من فروق بين هذه الألفاظ:

أنَّ الغَفْلة غيرُ النِّسيان؛ فالغَفْلة أنْ تُهْمِل مسألةً كان يجب ألّا تُهْمَل، وألّا تغيبَ عن بالك، فهو فقدُ الشُّعورِ بما حَقُّه أن يُشْعَر به، أو تَرْكُ الشَّيءِ فيما حَقُّه ألّا يُتْرَكَ، أمّا النِّسيان فبعضُه خارجٌ عن إرادتك[5].

والغَفْلة أعمُّ مِنَ النِّسيان؛ فالغَفْلة عبارةٌ عن عدم التَّفَطُّن للشَّيء، وعدمِ حضور

(1) الرّاغب، المفردات، والفيوميُّ، المصباح المنير، والزَّبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (غفل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والفيوميُّ، المصباح المنير، والزَّبيدي، تاج العروس: (نسي).
(3) الفيوميُّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (سهو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (لهو).
(5) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 15/9476.

الشَّيء في البال بالفعل، سواءٌ بقيتْ صورتُهُ أو معناه في الخيال أو الذِّكْر، أو انمحت عن أحدهما. أمّا النِّسيان فهو عبارة عن عُزوب الشَّيء عنِ النَّفس بعدَ حضوره لها، معَ انمحاء صورةِ الشَّيء أو معناه عنِ الخيال أو الذِّكْر بالكليَّة، ولذلك يحتاج النّاسِي إلى تَجشُّم كَسْبٍ جديدٍ وكُلْفَةٍ في تحصيله ثانيًا[1].

والغَفْلةُ غيرُ السَّهو؛ فالغَفْلة تكون عمّا يكون، والسَّهو يكون عمّا لا يكون، تقول: غَفَلْتُ عن هذا الشَّيء حتَّى كان، ولا تقول: سهوتُ عنه حتَّى كان؛ لأنَّك إذا سهوتَ عنه لم يكن، ويجوز أن تَغْفُل عنه ويكون، وفَرقٌ آخَر: أنَّ الغَفْلة تكون عن فعل الغير، تقول: كنتُ غافلًا عمّا كان من فلان، ولا يجوز أن يُسْهَى عن فِعْل الغَير[2].

والسَّهْوُ نسيانٌ مع غَفْلة، فالسَّهو غفلةٌ يسيرةٌ عمّا هو في القوَّة الحافظة يتَنبَّه بأدنى تنبيه، والنِّسيان زوالُه عنها بالكليَّة، بحيث يَحتاج إلى تحصيل جديد[3].

والغَفْلة غيرُ اللّهو؛ فاللّهو مبنيٌّ على الغَفْلة، إذِ الغَفْلة أحدُ أسبابِ اللّهو، كما أنَّه لا بُدَّ في اللّهو مِن تشاغل الإنسان عن أمر يَهُمُّه، بأمرٍ لا فائدةَ منه، بينما لا يُشْتَرط في الغَفْلة أن يكون مُنشَغِلًا بشيء.

ولـمّا كانتِ الغَفْلة إهمالَ مسألةٍ كان يجب ألّا تُهمَل، وألّا تغيب عنِ البال، ومِن معانيها الغَفْلة عن فعل الغير؛ اختيرتْ في فاصلة هذه الآية المباركة، في قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾؛ لكون فِعْل عبادة الله الصّادر مِن غيرهم، لا ينبغي أن يُهمَل أو يُغْفَل عنه.

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغوية، ص: 388.
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغوية: ص 388.
(3) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (سهو).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»